

ب — النهر الجماهيري الهادر الذي يفتسل فيه المثقفون من آثار سيات الجلادين على اجسادهم .
فالتقمع يولد اليأس الى حين ، ولكن الحركة الجماهيرية لا تتوقف ، وهي في سيرها نحو أهدافها ، تستطيع ان تداوي الجراح الفردية التي تظهر على اجساد المناضلين .

٢ — الأرض وعلاقة الانسان بها :

اذا كان الادب الفلسطيني يحاول ان يرسم اطارته حول الارض الفلسطينية ، فهذا يعود الى طبيعة القضية الوطنية الفلسطينية نفسها . فالهجرة الجماعية ، تجعل من العودة الى تراب الوطن حلسها اليومي ووقود نضالها الرئيسي ، كما ان الاقلية العربية التي بقيت داخل جدران السجن الاسرائيلي ، لا تجد مبرر وجودها وسط الظلام الذي يحيط بها سوى مزيد من التعلق بالارض . مزيد من الالتصاق بها والذوبان في احشائها . فحمدان الراعي الذي تحيط الذئاب بأغنامه من كل ناحية وتفتك بها ، يرفض ان يهاجر مع جموع ابناء القرية الذين فضلوا الرحيل « قلت لك يا ناجي ، بطلمش من هالبلد ، لو بفضس بزقاتها وبلقاش مين يدفني ! حمدان قال كلمته وبرجعش فيها ... بدك تشرق يا نذل شرق ، اما حمدان ، درب النذال ما هيش دربه ، وعمره ما نقل فوقها قدم . براسك يا ناجي هالمال غنيه ! ببيجك يوم يا ناجي توكل ايدك فيه ندامة ! مية الغربية عشاربها حنظل يا ناجي ، وبرسيمها الاخضر عالقمع عليق » . هذا الاصرار القروي، الرموي على البقاء في الارض ، تراثه عابية فلسطينية ، بسيطة . فالفلاح لا يعرف المعادلات الحسابية . انه مقتنع بأرضه حتى لو سرقوها منه كما في قصة « الفرس » فانه لا يبيع فرسه ويرحل . فالفرس تلد مهرا . والتفأول والاصرار على الصمود يأتي من فعل الطبيعة نفسها . الطبيعة قادرة على البقاء وعلى التجدد . الفرس تلد مهرا رغم ان الارض سرقت بأمر اداري ، فان الفرس تستطيع ان تكتشف بقعة ارض عليها تقف وتستمد الحياة .

لقد استطاع فياض في قصة « أم الخير » ان يحول الرمز الى فعل ايمان بالمستقبل . فالحياة التي دست السم في اللبن وتقلت عائلة « أم الخير » ومألت جسدها بالقروح ، هذه الحياة استطاعت ان تجبر أهل القرية على الهرب الى الحقول

والسكن في الخيام . لكن حسن الذي أحب أم الخير عندما كان يافعا وبقي مخلصا لحبه رغم مرور السنين الطوال . حسن بقي مع أم الخير ومع قروحها التي تنقل العدوى الى جسده . بقي امام الجروح حتى ماتت أم الخير . لكنها فعليا لم تمت . تحولت الى جذع يرويه حسن من قروحه الدائمة « وفي صباح اليوم التالي ، كان برعمان اخضران يتفتحان حيث كان الوشمان على غمازتيها ، وقد اخذا يكبران يوما بعد يوم ويفترعان ، ومن اطرافهما كانت تسقط عند كل صباح دمعتان ، على قروح حسن التي اقتعدته تحتها ، فتشفى عند كل صباح قرحتان » . هنا تتحول علاقة الانسان بالارض الى علاقة صوفية ، علاقة الدخول الى الجراح وممانقتها والبقاء في داخلها . فأم الخير ستتحول الى شجرة خضراء الغصون ، اذا بقي الانسان متمسكا بها يستقيها صموده واصراره .

اما في قصة « الكلب سمور » فان الارتباط النضالي بالارض يصبح هاجس الكاتب الرئيسي ، فالتاريخ النضالي الطويل الذي صنعه الشعب الفلسطيني في معاركه ضد المحتلين الانكليز ثم ضد الغزاة الصهاينة ، ينتقل الى الكلب سمور الذي يكلمه الكاتب وكأنه انسان يناضل من أجل قضية يعرفها جيدا . فالكلب يتعود على محاربة الجنود الانكليز، ثم ينتقل الى محاربة الجيوش العربية التي دخلت فلسطين سنة ١٩٤٨ دون ان تحارب . وحين يصل اهل القرية فان الكلب يتركهم ويعود الى البيت ليحرسه « — لا حول ولا قوة الا بالله ... رجع سمور عالبلد يا قاسم . ورد قاسم بصوت كسير : — على الاقل رجع يموت في الدار يابا... مش مثلنا ، نموت مهجرين من الجوع والمعلش ، لا بيت ولا مأوى » .

في قصص هذه المجموعة ، يملو صوت الارض ، ليغطي جميع الاصوات الاخرى . فصوت الانسان لا يصير مسموعا ، الا اذا كان جزءا من صوت الارض . وقيمة الانسان لا تأتي الا من خلال تعلق رجليه بالارض وانفراسها فيها . هذا الهاجس الدائم في قصص هذه المجموعة هو الذي يميزها فعليا . لكن الارض ليست واحدة رومانسية يلتجئ اليها المحارب سامة القيلولة . انها هي ساحة المعركة ، لان المعركة تجري باسمها . من هنا ، ورغم الصوت الفلاحي